على هامش معالم التقريب *

الوحدة والمساواة

لا تكتفى الدعوة إلى التقريب، التى حمل مشعلها محمد عبد الله محمد مع باقة من أفضل العلماء إخلاصا وعلمًا .. لا تكتفى باتخاذ " الوحدة " بين المسلمين شعارا، بل تسعى جهدها فى إبراز التفاصيل والمعالم التى تجسمها وتجمع الناس حولها بفهم يجعلها رجاءً حيًا قريبًا يقتضى من كل مسلم أن يكتتب فى تحقيقه وإنجاحه .

ينبغى الالتفات إلى أن الإسلام ككل - وليس كفرق ومذاهب - يقابل ويواجه مبادئ كلية قوية التأثير والانتشار، لا يمكنه أن يدير لها ظهره أو أن يغفل عن أن التقريب بين المذاهب هو حركة الجذب القادرة على جذب التفات المسلمين وجمعهم على هدف الاعتزاز بالإسلام ككل والدفاع عنه ككل ..

ينبه محمد عبد الله محمد إلى أن مواضع هذه المقابلة والمواجهة، هى من هذه الزاوية معالم طريق التقريب . اتصل بهذه المواجهة ما سبق ذكره عن نظرية الحقوق والحريات، وما يتعلق بالمال، وبالعلم والتعلم .. باعتبارها من الأسس التى لا يمكن لدعوة التقريب أن تتجاهلها .

وتمثل المساواة ركنا أساسيا من هذه الأركان، ينطلق السعى إليها دون تجاهل واقع اختلاف البشر فى المواهب والملكات والاستعدادات والقدرات، وهو اختلاف يزداد كلما اختلفت الظروف وامتدّ الزمن

---

* المال ١٢، ١٣، ١٩، ٢٠١١/١/٢٠

وتكاثر الناس . ومن مخاطر ذلك أن يختلط بالميل إلى " الاستعلاء " والشعور بالتفوق والرغبة فى الإعلان عنه !

ينتج عن هذا الميل ـ لا محالة ! ـ قلّة تعتبر نفسها من " الخاصة " أو " النخبة " أو " الصفوة " أو " العقلاء " أو " القادة " .. وما إلى ذلك من مظاهر التميز التى تتذرع بها هذه القلة أو الصفوة، وتستعلى على الكثرة الكاثرة التى تصف ـ من باب الاستعلاء ـ فى عناوين " العوام " أو " الدهماء " أو " الجهلاء " وما إلى ذلك من نعوت تسبغ على هذه الكثرة !

وتطبيق هذا التقسيم يداخله ـ فضلا عن الاستعلاء ـ كثير من الغرور والوهم والادعاء والتساند من جانب القلة أو الصفوة، وعير قليل من الخوف والتحاذل والإنضغاط والتسليم من الجانب الآخر ! . وهذا التقسيم لا يخلو أحيانا كثيرة من تحكم أو افتراض فوارق، قد لا تعبر عن فروق حقيقية فى المواهب أو الاستعدادات أو القدرات !

وطبيعى أن تنتظر هذه القلة ـ انقياد الكثرة وإذعانها ـ بحكم هذه الفوارق المفترضة ـ إلى ما تراه وتقدره وتنحو إليه هذه القلة أو الصفوة أو النخبة !

وبسبب افتراض البلادة فى الكثرة، لا تنقطع شكوى القلة من أن الكتل والعوام تشكل عبر التاريخ قشرة سميكة تشه قشرة الأرض، تتناثر عليها وتتلوث وتتسرب فى حلامدها وأوحالها ورمالها وتتحطم كل المذاهب والمبادئ والقوانين والأنظمة والأفكار العالية وكل ما أتحته العقول الفذة لهذه الصفوة !!

وفى ظل هذا الاستعلاء، واتهام الكثرة الكاثرة أن فيها عوامل التحلل والفناء وميادين الإهاجة ـ تزعم الصفوة المحتكرة للعقل والنضج، أنها الوحيدة القادرة على تعاطى المجهود العقلى وإنتاج ما يلزم للتقدم الفكرى والترقى الروحى، وتتصور باستعلائها أن من

مسئوليتها تصحيح عمل الخالق جل وعلا !! وأن لوازم هذا التصحيح لحلقة هذه الكثرة الغبية الخاملة - أن تتسنم ظهرها، وتفعل من خلال ذلك ما تشاء !

ومع أن أحداً لا يمكن أن يمارى فى أن مجال الكثرة الصعيفة - تربة تُعزى إليها كثير من المشاكل التى تواجه الإنسانية، إلا أن التصدى لها ومحاولة استنباط الحلول لمعالجتها - كان ولا يزال - ينطلق ويتم فى وسط مشوب بالاستعلاء الذى يمارسه القادة والحكام والمشرعون والمفكرون والفلاسفة والعلماء .

على أن ملاحظات أمثال هؤلاء على ظروف وأحوال كتلة أغلبية الناس، تأتى من على البعد البعيد، من مسافات زمانية أو مكانية أو طرفيه لا يمكن معها استخلاص كه ما يصادف العامة أو تصور ما يناسب حل مشاكلها وما تعانيه !

إن ما تراه الصفوة حسناً، لا يشترط بالصرورة أن يكون كذلك بالنسبة للكثرة الكاثرة .. وما تصفه هذه الصفوة من حلول، أو تخططه من خطوط - لا يمكن بحكم احتلاف الظروف أن يبقى على ذات قوامه أو استقامته الأولى عندما يدخل فى محيط الكتل الذى تتحادبه قوى هائلة لا يحيط بعلمها إلا الله عز وجل .

إن المبادئ والتنظيمات البشرية لا تتفاضل إلا بمدى نجاحها مؤقتا - فى اجتذاب الكتل زمناً ما، ولكنها تعود فتتعرض للالتواء والإجداب والانتكاس .. ويكشف ذلك عن وجود أفراد قليلين متميزين مهمين يركبون أكتاف كثيرين غير مهمين، متساندين إلى نظام لم يعد ينتظم شيئا، وإلى مبدأ لم يعد يصدقه أحد .. لا يرى الناس إلا ما يتحذر فيهم من استعلاء مقيت يسمم النفوس ويطرد منها الإحلاص والوفاء والقدرة على التساند والتكافل والمشاركة !!

فى قلب قضية الاستعلاء التى أثارها محمد عبدالله محمد، تقع مشكلة احتياج المجتمعات البشرية إلى العظمة والأبهة فى سياستها وضبطها .. وحين يقول القائلون إن اصطناع العظمة والأبهة لا غنى عنه لحكم الناس، وهو ما تذرع به معاوية بن أبى سفيان للتخلص من نظرات عمر بن الخطاب اللائمة، يقابله بالحتم والضرورة إشاعة الخوف والخنوع فى المحكومين وتشجيع الملق والصغار بينهم، وإفشاء الوهم والخداع فى أفكارهم . ثم شيئا فشيئا تصير هذه الآفات ضرورة لا غنى عنها لحكمهم أو التحكم فيهم !

نعم . إن وجود أقلية مهيبة لا تنقطع الحاجة إليه، إلاّ أنه لا يخفى أن اصطناع العظمة والأبهة يؤدى إلى تسلط الماديات والأشياء المادية على عقول الناس ونفوسهم . وهذه الآفات لا تتفشى إلا فى جماعة تعتقد أو تصدق أن " الأشياء " أكثر وأهم قيمة من " الإنسان " أو " الناس " .

إن أطر الأبهة والعظمة، تحيط المتحلى بهما بجو قاهر، يعطل أو يحجب المشابهة والمماثلة الطبيعية بينه وبين بقية خلق الله تعالى .. ومن ثم لا يعود قادراً وقد دار رأسه بمظاهر العظمة التى يلتصق بها - لا يعود قادرا أن يرى نفسه واحدا من الناس، يمكن أن يسرى عليه ما يسرى عليهم، وربما لا يعود قادرا على إدراك أن سنن الكون والوجود تسرى عليه كما تسرى على كل مخلوق ! يرى فى عين نفسه أنه يكبر ويتضخم باستمرار، وأن الآخرين يضمرون ويصغرون فى عين أنفسهم وفى عين نفسه .. يغذى ذلك وينميه ويرسخه اعتياده وهو على التفرد والتميز واعتياد الآخرين على التسليم والتزلف والإغناء والاسترضاء !!

فكيف إذن يحدث التقارب أو التقريب ؟! إن اطار العظمة يخاطب أولاً غريزتى الطمع والخوف، ويتعامل ابتداء وانتهاء مع

النوازع الأنانية، وعلى أطراف هذه وتلك تتغذى عوامل النفور لا التقارب!

إن القرآن المجيد يرفض كل صور الاستعلاء في علاقات الأفراد بعضهم ببعض، وفي علاقة الحاكمين بالمحكومين، والأغنياء بالفقراء.. كما يرفض أن تكون السلطة مسا أو فرصة للعلو والركوب على رقاب الناس، ويرفض أن تكون العظمة أو الأبهة إطارا يتحاكم إليه الناس، أو درجا يتسلقون به أو ينتظرون منه مغانم لذلك سواء في الدنيا أو في الآخرة .. وفي القرآن الحكيم :

" تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ " (القصص /٨٣)، .. وفي القرآن أيضا : " وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ " (الزمر /٦٠) . " سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ " (الأعراف /١٤٦) . " فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ " (الأحقاف /٢٠)

إن تقارب الله تعالى يبدأ وينتهي من "لا إله إلا الله" .. ومتى وجد هذا الولاء الحقيقي لله تعالى في قلب المسلم السوي ـ ابتعد يقينا عن مظاهر العظمة والأبهة، وتجنبه حاكما كان أو محكوما، وعافت نفسه وكرهت أوهام وتهاويل هذه المظاهر، مدركة أنها لا تنتفع ولا يمكن أن تنتفع بشيء من ذلك الباطل الذي لا يرى في عماه أن حقيقة الله تعالى حاصرة قاهرة فوق عباده

قد أمرنا النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن نعلو مع الله في بلاده وعباده، وأوصانا أن نحثو التراب في وجه المداحين .. الذين

هم مروجو العظمة الباطلة وأعوان الظالمين والطغاة ومسوغو عبادة الأصنام البشرية !!

لا يقر القرآن المجيد والسنة المطهرة، من صور الحكم، إلاَّ الصورة الرشيدة التى تلغى كل المسافات وأنواع البعد والغربة والانفصال بين الناس وبين حكامهم.. لا يرتضى من الحكام إلا التعرى من كل أغطية الأبهة وستائر العظمة والاستعلاء، مراعيا فى ذلك أن ألا تحتجب بشريتهم وعبوديتهم لله عز وجل، وألا يخدع الناس عن حقيقتهم .. وأن يكونوا صورة مثلى يتجرد فيها الحكم من كل الامتيازات المادية، وكل ما يجعله مطمعا أو مغنما للراغبين فى التملك والعلو فى الأرض والركوب على رقاب الناس !

ظل الإسلام فى فترة الخلافة الراشدة، حريصا على إبعاد كل مظاهر الاستعلاء والتعاظم - عن صور الحكم والحكام والولاة .. يدرك جلال ومثالية هذه الصورة الراشدة - من يقارنها بما يراه الناس ويحسونه الآن فى نظم الحكم التى أغرقت - رغم اختلافها - فى اتخاذ الأسماء والأوضاع والأغراض فى البلاد المختلفة، وفى الإغراق فى مظاهر وتهاويل الأبهة والعظمة على قدر المتاح فى كل بلد، مما أوجد ويوجد انفصالا حادا بين الحكام والمحكومين من ناحية، وبين الأغنياء والأكابر والأقوياء والأحياء - وبين بقية الناس من ناحية أخرى !!

يتساءل محمد عبد الله محمد، وهو يبحث فى التأثير السلبى للاستعلاء - على التقريب الواجب بين المسلمين - يتساءل أو دعنا نقول : ينبه إلى ملمح هام للإسلام، تجلى فى أنه فى عنفوان العقيدة أيام النبوّة والخلفاء الراشدين الأربعة رضوان الله عليهم، قد استبعد كلية إطار العظمة فى الحكم، ولم يتصور النبى عليه السلام ولا المسلمون فى عهده، ولا الخلفاء الأربعة ولا من كان فى عهدهم بالمدينة ومكة - لم يتصوروا أن يكون للخليفة قصر يحكم منه

الناس، ولا حاشية تحف به أو حرس يحوطه ويحميه، ولم يتصوروا أن ينعموا بأطايب الطعام أو يرفلوا فى الغالى من الثياب ..ولم يتصور أحد من الصحابة والتابعين والعامة، أن عليه أن ينحنى إجلالا وتعظيما للخليفة حين يلقاه، أو ينكسروا أو يطروا ويمتدحوا أو يتملقوا . ولم يدر بخلد أحد منهم أن يخاطبوا النبى أو أحدًا من الخلفاء الأربعة بشىء من ألقاب العظمة أو الفخامة أو التبجيل أو السيادة !

وبرغم رفض الاستعلاء فى الحكم بشتى صوره وأشكاله ومعانيه، فإن ما باشره النبى عليه السلام والخلفاء الأربعة من شئون الحكم على الرعية لم يكن ضئيلا ولا ضيقا، بل ساسوا أمور الدين والدنيا فى سلاسة بعيدة عن الاستعلاء، ونجحوا فى إقامة إمراطورية واسعة الأطراف !

يبدو للمتأمل أن الرسول - صلى الله عليه وسلم، والخلفاء الأربعة من بعده، قد جردوا حكم الناس - تجريدًا تامًا - عن فكرة الملكية ومن فكرة الانتفاع .. والمسئولية التى كانت فى يد كل منهم، هى مسئولية ومشقة بلا عوض ولا مقابل ولا أطماع ولا مرايا .. ولأن الحكم كان على هذا المعنى، فإنه نرى، فى ذلك الزمان من أى محاولة للوثوب على السلطة أو غصبها، ولا احتاجت الدولة لاصطناع الموالين أو البطش بالمعادين . بل إن عمر بن الخطاب أوقف إبان خلافته سهم المؤلفة قلوبهم .

وهذا النوع من الحكم الذى سنّ به الإسلام نظم الحكم فى أوروبا التى لم تفارق فكرة الملكية إلا بعد الثورة الفرنسية - هذا النوع الفريد من الحكم فى الإسلام، بلا عوض ولا مقابل، اللهم إلا الكفاف، حسب الحاكم الاشتغال بالمحافظة على سلطانه بين المحكومين .. فلم يضيع أحد منهم فى ذلك مالا أو يسفك دماً للمحافظة على حكمه !

وهذه التجربة فى الحكم، التى امتدت نحو ثلاثين عامًا استغنت فيها كلية عن إطار العظمة والشوكة، هى قطعة ثمينة جدًا فى تاج الإسلام .. وإذا كانت هذه الصورة الرفيعة للحكم قد تعرضت لانتكاسة بعد خلافة الإمام علىّ كرم الله وجهه، إلا أن ذلك لم يكن كرهًا فى تلك الصورة، وإنما للعجز إثر استشهاد الإمام عن استنقاذها بسبب الخلافات والمنازعات والفتن التى قطعت أسباب التعاون والتساند فيما بين المسلمين، ودفعت بفكرة حماية السلطة إلى الساحة التى آلت إلى الذين نازعوا الإمام فى خلافته، فانشغلوا بالسلطة وتكريسها ووقايتها .. ولعل هذا هو الذى أسلس إلى نوع من اليأس جعل غالبية المسلمين ينصرفون حتى اليوم عن الاهتمام بشئون الحكم فى بلادهم !

ومن المؤسف أنه على أنقاض هذه التجربة الفذة، أو القطعة الثمينة فى تاج الإسلام - قامت أو نشأت فكرة الخليفة الملك، بما استتبعها من وراثة الملك التى امتدت طوال اثنى عشر قرنا عبر الدولة الأموية ثم العباسية وما تفرع عن كل منها وما تلاهما .

وعبر هذه القرون التى سادت فيها فكرة الخليفة الملك، وانتهت عملا بانتهاء الدولة العثمانية فى العشرينيات من القرن الماضى، صاحب الملك انتفاع الخليفة بالدين واستخدامه فى توثيق ولاء المسلمين لشخصه وملكه ودولته، وهيمنة الملك - استنادًا إلى ذلك - على توزيع المناصب الكبرى فى الدين والدنيا .. واتخذ الإسلام تبعًا لذلك جنسية كلية أو وطنية عامة انتهت إلى الإقرار للملك الخليفة بملكه وخلافته معًا، وحملت الإسلام بغير حق طغيان وظلم وحماقة الطغاة والظلمة والحمقى من ملوك الأمويين والعباسيين والفاطميين والعثمانيين وغيرهم .. كما حملت الإسلام بغير حق مسئولية تجذر الاستبداد وشيوعه تلك القرون الطويلة !!

ويخطىء من يعزو هذه التجربة الإسلامية العظيمة التى كانت فى زمن النبوة والراشدين، إلى مجرد قرب عهد المسلمين بالبداوة وما يرتبط بها من البساطة والقرب من الطبيعة، ذلك أن البداوة تعرف الاستعلاء وتحبه وتعشق العظمة وتتيه بها .. وعبرت عنها أشعار شعرائها ..

كذلك من الخطأ رد نفور الإسلام من العظمة والأبهة وأستارهما - إلى فكرة الزهد . ذلك لأن من يتأمل موقف الإسلام يرى بوضوح أنه يرفض العظمة لأنها شىء غير مفيد وصار لمن يرجو العيش فى سلام وكرامة وصدق مع النفس والغير .

نفور الإسلام من الاستعلاء والعظمة، مرده إلى تعلقه الشديد بالصدق .. وهو تعلق يعبر عن جوهر الإسلام فى تعامل المسلم مع ربه .. معاملة فيما كبر أو صغر، وفيما حل أو حقر .. هذا التعامل مع الله حاضر فى الفرائض وفى العادات وفى المعاملات .. وهو تعامل لا يتحقق إلا إذا كان أساسه الصدق الصرف مع الله تعالى، ومن المحال أن يحل محله " مظهر " الصدق أو صورته أو اصطناعه أو المراءاة به .. لأن كل هذه الصور والمظاهر التى يمكن أن تحيل على الناس، لا قيمة لها عند الله تبارك وتعالى الذى يعلم السر وما يخفى .. والمسلم السرى لا يستطيع أن يرى عظيمًا غير الله تعالى، ولا أن يبصر عظمة غير عظمة الله تعالى، فإليه سبحانه وحده تتطامن وتعنو الوجوه والنفوس وتخنت للحىّ القيوم .

لذلك فاستغناء الإسلام عن حكم الناس فى إطار العظمة، اقترن باستغنائه عن تقديس أو تأليه السلطة .. وارتبط فى جوهره بفكرة المساواة التى ترفض التعاظم والاستعلاء، وتربط بين الناس بشعور فكرى كامن فيهم، وهو الجسر الحىّ للتقريب، ومنبع الشعور بالكرامة التى تعطى للمسلم حقه فى ألا يتكبر عليه أحد، وأن يعيش فى مجتمع عماده الهداية والرشاد والحكمة والمساواة .

* * *

لم يتجاهل الإسلام الفوارق الموجودة بين الناس، ولا افترض عدم وجودها . وإنما عمد القرآن والسنة إلى تغيير نظرة الناس إلى هذه الفروق ومعناها ودلالتها وقيمتها، وإلى مكافحة العادات الجاهلية الظالمة ومنعها من أن تستبد بتأويل وفرض تأويلها لهذه الفروق .

هذه المعالجة الباطنية النفسية اتخذت طريق التلقين : تلقين المسلمين أولا أن الملكات والمزايا والتراث والقيم - كلها نعم مصدرها الوحيد هو الله عز وجل، وأن بقاءها وزوالها مرتبط برضائه سبحانه ومشيئته .. وأن كل المخلوقات رهن بهذه المشيئة، وأن من تعاظم على ربوبيته قصم ظهره إذ العظمة لله وحده لا يفكر فى مشاركته فيها إلا مشرك ؟

والتلقين الثانى الذى عمد إليه القرآن والسنة، هو تلقين المسلمين أن المبالغة والتطرف والإفراط فى الطلب - ليس من الإسلام . وأن الله تبارك وتعالى لا يحب الانفراد والاستئثار والاحتكار والبخل، ويمقت الاستطالة على الناس بالمال أو بالسلطة أو بالأهل، وأنه سبحانه وتعالى يحب السماحة والسخاوة والرفق، وأن المهم لنجاح الحياة هو البركة لا الكثرة

والثالثة التى عنى بها الإسلام، هى تلقين المسلمين أنهم إخوة به .. وأن لهذه الأخوة تبعاتها أمام الله بتساندهم فى السر والعلن، فلا يجوع منهم أحد ولا يعطش ولا يتعرى ولا يُظلم ولا يُروع ولا يُضام بينما إخوته آمنون يأكلون ويشربون ويلبسون وينعمون .. وأنه عز وجل لا يقبل ممن أسلموا وجوههم إليه أن يتباغضوا ويتنافروا، وإنما يحب لهم أن يتحابوا ويتساندوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا .. ولا يقبل الذى يحب أن يحتاز لنفسه كل شىء .. وأن يمتلك ويتميز ويتسيد ويرتفع وحده . فهذا الانعزال والانحياز للذات يعطل تيار الإسلام، ويبث الأنانية والتباغض

والتباعد والغربة والفرقة بين المسلمين الذين يحب الله تعالى لهم أن يتآخوا وأن يتقاربوا .

أما الرابعة التى يلقنها الإسلام لأهله، فهى ألا يخافوا الفقر ولا يسبعى أن تفزع قلوبهم منه .. فخوف الفقر من الشرك الخفى لأنه ضعف فى الإيمان بالله وضعف فى الثقة بوعده .. وكذلك يلقنهم الإسلام ألا ينفروا من الفقراء أو يتحنبوهم أو يتعالوا عليهم أو يستخفوا بهم أو يستكثروا نعمة الله على ضعيف أو فقير، أو أن يكرهوا وصول نور الله وفضله ورحمته إليهم .

والإسلام يلقن أهله خامسا - إدراك قيمة الناس والاعتراف بأهميتهم واحترام خصوصياتهم وحرماتهم، وتحاشى كسر خواطرهم بالاستطالة والصولة والتعالى عليهم وقلة المبالاة بهم .

ويلقنهم الإسلام كذلك، أن الفروق التى تستوقف أنظار الناس عرض زائل لا يمس حقيقة الإنسان

لذلك رفض الإسلام كل فكرة مبنية على الفروق الطبيعية كاللون أو العرق، أو على الفروق المكتسبة كالنسب والمكانة والمال.. فهذه كلها حوائل تباعد بين المسلمين وتحول دون تقاربهم والتقريب بينهم .. وتصد شعورهم بأنهم جميعا عبيد الله وحده وملكه سبحانه وحده، وتحول دون امتزاجهم وتعاطفهم وتعرقل تدفق تيار الأخوة فى الله عز وجل .

إن عبادة الفوارق هى التى تهدد قيمة وفائدة وعمل الحياة الإسلامية وتهدد معنى تساوى المسلمين فى نعمتها كل بقدر ما فى قلبه . والإسلام لا يقر ما يسمى بالطبقات أو أى تقسيمات للناس على أساس المال أو العرق أو الأنصبة من الدنيا .. فالطبقية مهما كانت صورها تشكل عوازل تعرقل المعنى الجامع الذى يطوى

يجمع كل أفراد الجماعة وينسيهم ما بينهم من فروق ويذكرهم بما بينهم من أخوة وتعاطف ومودة ورحمة .

ومعرفة الدرجات غير إقرار الطبقية والطبقات .. فالدرجات تابعة لمسئوليات الناس فى الحياة العامة والخاصة، ولا تضمن لأحد حيازة السند الدينى أو السلطان الدنيوى، ولا تقر له إلا ما يبذله الوفاء بواجبه واتباع الحق فيه، وإلا كان غير جدير بدرجته مغتصبا لها !

والإسلام يسلم بالفروق فى الأرزاق، وبحرية السعى فى طلب الرزق، والاجتهاد فيه، ويمنع المصادرة عليه .. لأن الله وحده هو الرزاق، ومتى فهم المسلم ذلك، فارقه القلق واستعجال النتائج والوقوع فى براثن الهموم والمخاوف، وامتلأ ثقة فى وعد الحق سبحانه وتعالى واطمئنانا إلى رعايته وعطائه ورحمته .

ليس من الميسور فهم المساواة منفصلة عن الأخوة والإخاء . فالمساواة وعدم المساواة شعور قبل كل شىء .. هذا الشعور ليس سببه الأشياء، وإنما سببه الإنسان ذاته . ولذلك فدعائم المساواة لا تقوم منفصلة عن الإنسان وعواطفه الخالصة الصادقة .. ولا معنى ولا أمل لمحاولات التقريب المعتمدة على القوة والإلزام، ولا لمحاولات فرض توحيد الدخول والأرزاق وتسويتها بالقسر والإرغام .

لا تسمح تعاليم الإسلام بوجود الإحساس الطبقى الحاد المرير الذى يجعل الناس فى صراع وحروب ظاهرة أو خفيه، معلنة أو غير معلنة . وسبيل الإسلام فى المعتركات التى تملأ دنيا الناس وتشعلهم وتشعل الحروب بينهم، هو أن يكتسب إلى صفه أرواح البشر .. كبشر لا كملائكة .. فإذا اكتسب أرواح الناس صار مقدوره بواسطة الناس أنفسهم أن يقود الغرائز والأطماع والمصالح.. هذه الطريقة التى تكسب أرواح البشر قد تركها معظم الناس فى أوروبا منذ أواخر القرن الثامن عشر، وانصرفوا عنها إلى محاولة

كسب العقول فقط، والاستغناء بضمير الإنسان عن الإيمان بالقانون الأخلاقى، وعن الله عز وجل !

على أن الاقتصار على كسب العقول فقط أو الاهتمام بكسبها، لم يُجد فى منع الحروب والفتن والشرور الكثيرة التى شقى ويشقى بها العالم الحديث .. فالناس لا يألمون ولا يأتلفون لا يسكنون ولا يقبلون ولا يسالمون - استجابة فقط لحكم عقولهم، وإنما أيضا بوجيب عواطفهم ومشاعرهم وما ألفوه. وهذا الجانب الفعال الرئيسى فى كيان الإنسان، لم يعد يلاقى فى التعليم ما تلقاه العقول والآداب والعلوم والفنون، وصار أغلب زاده مستمدا من المجالس الخاصة والمحافل والاجتماعات وما قد تبذله بعض الصحف والمجلات والإذاعات والمطبوعات، بيد أن هذه الوسائل معنية فى المقام الأول بنجاح حملاتها وتحقيق أغراضها فى تحريك نوازع الناس ودوافعهم فى الإتجاهات المرسومة لهم ! ومن ثم لا تعنى بتربية النفوس ولا بمساعدة الناس على النمو والصحو وصحة الحكم، لذلك اتسم عصرنا بقوة التحزب وسعة التعصب الحزبى، بينما لا يتطابق المتعصب الحزبى مع الإنسان الصادق .

وهذه الحال لا يتصورها الإسلام ولا يقبلها، لأن المسلم الصادق الممتاز هو الإنسان الصادق الممتاز طبقا لموازين الإنسانية التى يتبناها الإسلام .

تحقيق المساواة بين الناس مصدره فى الإسلام صدق الولاء لله عز وجل، والثقة فى الله عز وجل، الذى إليه يتوجه المسلم السوى، ويسند إليه ظهره، ويدرك ما بينه وبين الناس من إخاء وأخوة فى الإنسانية فى كنف الله عز وجل .